الفصل الثانى

بين الوحى والعقل

« مصادر المعرفة »

غلط البعض اذ قدموا العقل على الوحى ، والعقل من غير وحى يضل ويشقى ، وغلط البعض اذ اقتصروا على الوحى وألغوا دور العقل .. ونسوا أنه مناط التكليف ، وبه — فى دائرة الوحى — الاجتهاد والاستنباط « **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** »(*) وبالعقل يكون الاتباع الرشيد للوحى المجيد « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » (١) ! ذاك موضوع هذا الفصل !

* * *

● **الوحى :**

الوحى نور : ما أحس الناس بعد حلاوة الوحى ، ولا قدروه حق قدره !

والوحى نور من نور ..

(*) النساء : ٨٣ .

(١) طه : ١٢٣ .

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا الى الله تصير الأمور » (٢) .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضـــوانه سبل السلام ويخـــرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (٣) .

« الر ، كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد » (٤) .

ومن قبل القرآن كان الانجيل .. « فيه هدى ونور » .

« وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » (٥) .

ومن قبل الانجيل كانت التوراة كذلك « فيها هدى ونور » .

« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار » (*) ..

---

(٢) الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .
(٣) المائدة : ١٥ ، ١٦ .
(٤) ابراهيم : ١ ، ٢ .
(٥) المائدة : ٤٦ .
(*) المائدة : ٤٤ .

بيد أنه اذا قيد النور فى الانجيل والتوراة فقد أطلق فى القرآن ولا غرو فقد جاء : «مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه».

« وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم مما كنتم فيه تختلفون » (٦) .

والوحى نور..من نور « الله نور السموات والأرض..» (٧)
« نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ... » (٧) .

* * *

● الوحى حق :

« وبالحق أنزلناه وبالحق نزل .. » (٨) .

« الحق من ربك فلا تكن من الممترين » (٩) .

« يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (١٠) .

« وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وايای فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » (١١) .

---

(٦) المائدة : ٤٨ .
(٧) النور : ٣٥ .
(٨) الاسراء : ١٠٥ .
(٩) آل عمران : ٦٠ .
(١٠) آل عمران : ٧١ .
(١١) البقرة : ٤١ ، ٤٢

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » (١٢) .

« ويستنبئونك أحق هو ، قل اى وربى انه لحق ، وما انتم بمعجزين » (١٣) .

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم،أسحر هذا ولا يفلح الساحرون)(١٤).

« فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (١٥) .

« قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » (١٦) .

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض،كذلك يضرب الله الأمثال)(١٧).

« افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، انما يتذكر أولوا الألباب » (١٨) .

---

(١٢) النساء : ١٠٥ .
(١٣) يونس : ٥٣ .
(١٤) يونس : ٧٦ ، ٧٧ .
(١٥) يونس : ٩٤ .
(١٦) يونس : ١٠٨ ، ١٠٩
(١٧) الرعد : ١٧ .
(١٨) الرعد : ١٩ .

« واذا بدلنـــا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (١٩) .

« فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » (٢٠) .

«واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (٢١) .

« قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جـــاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » (٢٢) .

وكما خلق السموات والأرض بالحق ، فقد أنزل الكتاب بالحق :

« خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون »(٢٣).

« خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، ألا هو العزيز الغفار » (٢٤) .

والذى خلق هذه بالحق ، وأنزل ذلك بالحق .. هو الله الحق :

« ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير » (٢٥) .

---

(١٩) النحل : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢٠) النمل : ٧٩ .
(٢١) القصص : ٥٣ .
(٢٢ سبأ : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢٣) النحل : ٣
(٢٤) الزمر : ٥ .
(٢٥) الحج : ٦٢ .

وكما أن ما يدعون من دونه هو الباطل ، فانه ليس بعد القرآن الذى هو حق الا الضلال « **فماذا بعد الحق الا الضلال** » (٢٦) .

* * *

● **والوحى هدى ورحمة وشفاء :**

« **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** » (٢٧) .

« **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** » (٢٨) .

« **أو لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** » (٢٩) .

« **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد** » (٣٠) .

« **ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين** » (٣١) .

* * *

● **ماذا بعد النور والحق ، والهدى والرحمة والشفاء ؟**

ليس بعد النور الا الظلام .

وليس بعد الحق الا الباطل .

---

(٢٦) يونس : ٣٢ .
(٢٧) يونس : ٥٧ ، ٥٨ .
(٢٨) الاسراء : ٨٢ .
(٢٩) العنكبوت : ٥١ .
(٣٠) الزمر : ٢٣ .
(٣١) البقرة : ٢ .

وليس بعد الهدى الا الضلال .
وليس بعد الرحمة الا الشقاء .
وليس بعد الشفاء الا مرض وسقم وداء !
فمن ذا الذى يرفض النور ويرضى بالظلام ؟
من ذا الذى يرفض الحق ويرضى بالباطل ؟
من ذا الذى يرفض الهدى ويحب الضلال ؟
من ذا الذى يرفض الرحمة ويرضى بالشقاء ؟
من ذا الذى يرفض الشفاء ويرضى بالعلة والسقم والداء ؟ !
« أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله ، بل اولئك هم الظالمون » ؟؟ (٣٢) .

* * *

● **الوحى هو الكتاب والسنة :**

الكتاب وحى ... ذاك مالا يحتاج الى دليل ، وقد تقدم من الآيات ما فيه الكفاية .

والسنة وحى . . ذاك نص القـــرآن : **« ومـــا ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » (٣٣) .**

وهى كذلك لانها وان كانت لفظا من عند الرسول ﷺ فهى معنى من عند الله .. وسوف نزيد ذلك تفصيلا عند الحـــديث عن السنة .

---

(٣٢) النور : ٥٠ .
(٣٣) النجم : ٣ ، ٤ .

وسوف نشير الى بعض « قواعد » حول الوحى .. **كتابا وسنة** .. والله المستعان .

* * *

أولا ــ قواعد حول الكتاب :

١ ــ « لا تقدموا بين يدى الله ورسوله » :

فى فقه المجتمع أو المجتمعات لا يتقدم الصغير على الكبير ، ولا الخفير على الأمير ... وفى فقه السنة « كبر ثم يمن » أى ابدأ بالكبير ثم على من يمينه .

وفيـــه كذلك « ليس منا من لم يوقر كبيرا ولم يعطف على صغير » .

اذا كان ذلك كذلك..فكيف ساغ تقدم المخلوق على الخالق..؟

من أجل ذلك كان الأمر صريحا واضحا خطابا للمؤمنين بالله واليوم الآخـــر **« يا أيها الذين آمنـــوا لا تقـــدموا بين يدى الله ورسوله»** (٣٤) . وربط ذلك بالتقوى **« واتقوا الله »** (٣٤) ثم اثارة المراقبة **« ان الله سميع عليم »** (٣٤)

وبعده التأكيد :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون » (٣٥) .

والناس فى مجتمعات الفطرة لا يزالون لا يسيغون أن يرفع

---

(٣٤) الحجرات : ١ (٣٥) الحجرات : ٢ .

صغير صوته على كبير . . لا ماديا ولا معنويا . . . أما ماديا فمعروف ، وأما معنويا فهو أن يمضى الصغير رأيه على الكبير . . .

واذا لم يكن ذلك سائغا مع الكبير من البشر ، فهلا يجوز ذلك مع المعصوم من البشر « **وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى** » (٣٦) .

واذا لم يكن ذلك سائغا مع البشر أيا كان البشر ، فهل يسوغ مع رب البشر وخالق البشر ؟

من هنا كان ذلك الاصل الهام . . القرآن يتقدم ولا يتقدم عليه وتلك كانت بعض مبرارته .

أما ما بقى من مبرراته الشرعية :

(أ) فهو أنه قطعى الورود عن الله سبحانه وتعالى ، فقد وصل الينا متواترا يدحض كل تشكيك فى صدوره عن رب العالمين !

(ب) وأن الله قد أنبأنا بحفظه ، فبينما ترك الكتب السابقة فى حفظها لأصحابها « **بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** » (٣٧) فقد تكفل بحفظ كتابه الأخير وجعله عهدا على نفسه سبحانه وتعالى « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (٣٨) .

(جـ) وأن فيه خير الدين والدنيا والآخرة :

« **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** » (٣٩) .

---

(٣٦) النجم : ٣ ، ٤ .
(٣٧) المائدة : ٤٤ .
(٣٨) الحجر : ٩ .
(٣٩) النحل : ٨٩ .

٢ ــ « **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك** » .

كتاب الله لا يقبل التجزئة : « **وتؤمنون بالكتاب كله** » (٤٠) ، « **ويكون الدين كله لله ..** » (٤١) .

وتجزئته فتنة ، وجاهلية ، وكفر ، ومحاربة الله ورسوله .

أما الفتنة فقوله تعالى : « **واحذرهم أن يفتنون عن بعض ما أنزل الله اليك** » (٤٢) .

وأما الجاهلية فقوله تعالى : « **أفحكم الجاهلية يبغون** » (٤٣) وذلك تعقيبا على آية التبعيض .

ويعقبها سبحانه « **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** » (٤٤) .

وأما الكفر فقوله تعالى : « **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** » (٤٥) .

وأما المحاربة فقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** » (٤٦) ...

وفى المعنى حديث رسول الله ﷺ : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى حكمه » (٤٧) ، ويقول فيه ابن تيمية :

---

(٤٠) آل عمران : ١١٩
(٤١) الأنفال : ٣٩ .
(٤٢) المائدة : ٤٩ .
(٤٣) المائدة : ٥٠ .
(٤٤) المائدة : ٥٠ ..
(٤٥) البقرة : ٨٥ .
(٤٦) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٤٧) رواه الترمذى .

« هذا فيمن حالت شفاعته دون حد من حدود الله ، فكيف بمن منع الحدود بقدرته ويده » ؟ !

وأما جزاء ذلك فقد جاء فى آية التجزئه الأولى « **فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم** » (٤٨) .

كما جاء فى آية التجزئة الثانية « **فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحيـــاة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب** » (٤٩) .

وقد فصلت الثانية ما أجملت الأولى ، فلئن أشارت الأولى الى أن من يقع فى ذلك «**فان تولوا**» فان الله يصيبه ببعض ذنوبهم. فان الثانية فصلت تلك المصيبة .. فاذا بها مصيبتان : خزى فى الدنيا .. واشد العذاب فى الآخرة !

وعدم التجزئة فضلا عن انه أمر شرعى فهو كذلك فطرى .

فالشفاء المتكامل لايترتب عليه أثره اذا جزىء واختار المريض بعض الدواء دون البعض الآخر ، بل ان استخدام بعض الدواء دون البعض — رغم وصف الطبيب المتكامل — فقد يؤدى الى تفاقم الداء فضلا عن عدم الشفاء !

والبناء المتكامل يشد بعضه بعضا . فان أصيب فى بعض اجزائه ، أو هدمت بعض أجزائه ، فان ذلك يؤدى به الى التصدع أو ينقص من القواعد .

---

(٤٨) المائدة : ٤٩ .

(٤٩) البقرة : ٨٥ .

٣ ــ القرآن هو التوجيه والتشريع :

للتخصص فائدته من حيث اتقان مجال التخصص ، لكنه قد يعطى ظلالا من التفرقة وعدم الترابط بين الأجزاء المختلفة .

واهتمام العلماء بجانب « التشريع» أو « الاحكام » فى كتاب الله ، قد ألقى فى روع البعض ــ عن شعور أو بغير شعور ــ جعل جانب التوجيه فى مكان دون جانب « التشريع » .

والحق أن الكل من عند الله ، وأن التوجيه والتشريع يتكاملان لاعطاء الصورة المتكاملة لشرع الله فاذا به يجمع بين الواقع والمثال ، فالأول يأمر بما يعالجه ، والثانى يندب بما يرتفع اليه ومثال ذلك :

« **وجزاء سيئة سيئة مثلها** » (٥٠) (تشريع ــ أو حكم)

« **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** » (٥١) (توجيه)

« **وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم** » (٥٢) (تشريع) .

«**الا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح**» (٥٣) (توجيه).

« **وأن تعفوا أقرب للتقوى** » (٥٤) (توجيه)

« **ولا تنسوا الفضل بينكم** » .. (٥٥) (توجيه)

---

(٥٠) الشورى : ٤٠ .
(٥١) الشورى : ٤٠ .
(٥٢) البقرة : ٢٣٧ .
(٥٣) البقرة : ٢٣٧ .
(٥٤) البقرة : ٢٣٧ .
(٥٥) البقرة : ٢٣٧ .

وقد شمل القصص القرآن — ومساحته فى القرآن كبيرة — الكثير من التوجيه فضلا عن التشريع (٥٦) .

* * *

ثانيا — قواعد حول السنة :

١ — السنة شقيقة القرآن :

لأن الله سماها وحيا كما سمى القرآن وحيا « **وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى** » (٥٧)

«وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا،ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ... » (٥٨)

ولأن الله أمر بطاعة الرسول استقلالا كما أمر بطاعته استقلالا .

ولأن الرسول ﷺ جعلها مثل القرآن « ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه » .

ولأن العمل بالقرآن لا يتأتى بغير العمل بها ... لأنها اما مفصلة لما اجمل .. او مقيدة لما أطلق .. أو مخصصة لما عمم ...

---

(٥٦) ضربنا مثلا لذلك فى سورة يوسف فعددنا كم فيها من الدروس التى تنضوى تحت التوجيه والتشريع فليرجع اليها من أراد (راجع القرآن فوق الدستور ، للمؤلف — تحت عنوان : دروس من سورة يوسف) .

(٥٧) النجم : ٣ ، ٤ .

(٥٨) الشورى : ٥٢

أو أتت بحكم زائد يمكن رده عند البعض الى القرآن (مالك وأحمد وغيرهما) أو اعتباره زائدا يدل على اختصاص رسول الله ﷺ بهذا الخير (الشافعى) .

٢ — كفر من جحد السنة او أنكر العمل بها :

من جحد السنة أو أنكرها كمن جحد القرآن أو أنكره .. كافر كفرا بواحا .

لكن الاختلاف حول حجية حديث أو نوع من الحديث (كالآحاد فى مجال العقيدة) أمر آخر ، وقد حدث مثل هذا الاختلاف على عهد السلف فما طعن فيهم أحد ولا طعن بعضهم فى بعض !

٣ — السنة هى القول والفعل والاقرار :

كل بالدرجة التى تحدث بها العلماء .

والجمع بين طريقين (قول وفعل أو فعل واقرار ...) والجمع بين قولين فى معنى واحد يقوى بعضه بعضا ، فان زاد أدى الى تواتر معنوى يوثق الخبر أو الحديث (٥٩) .

٤ — والآحاد معمول به حتى فى مجال العقيدة :

فقد جاء اتفاق الأئمة على العمل بالآحاد فى غير العقيدة .

وفى مجال العقيدة قال بذلك جم غفير من علماء الحديث ومن سائر العلماء .

---

(٥٩) راجع الموافقات للامام الشاطبى .

واشتراط راويين ، أو اشتراط القسم من راوى الحديث يعنى التأكد ولا يخرجه عن كونه آحاد .

٥ — وفعل الرسول ﷺ قاضيا واماما :

يعملَ به فى مجالَ انزالَ الحكم على الوقائع ، وليس فىَ مجالَ الوقائع أو تكييف تلك الوقائع .

فمثلا : قضاء الرسول بالرجم بالنسبة للمحصن ، معمول به كجزء من السنة ، لأنه تضمن حكما شرعيا .

أما ماهى الوقائع ، وأما تكييف هذه الوقائع .. أهى زنا أم غير زنا..فهذا جهد بشرى يختلف عن الجزء (القانونى) أو الشرعى كما أسلفنا ، وقد غلط فى هذا البعض فاستبعد الجميع (٦٠) .

* * *

ثالثا — قواعد مشتركة بين الكتاب والسنة :

١ — حـــول الثبوت :

القرآن قطعى الثبوت : على ذلك اجماع المسلمين من لدن رسول الله ﷺ وحتى اليوم .

ذلك أن أمين الأرض بلغه عن أمين السماء عن الله عز وجل ، ثم تواتر جيلا عن جيل ، فى الصدور وفى السطور ، وتحقق له الأمر القـــدرى والأمـــر الشرعى : « **انا نحن نزلنـــا الذكـــر وانا له لحافظون** » (٦١) .

---

(٦٠) راجع الحكم فى الاسلام — د. عبد الحميد متولى .
(٦١) الحجر : ٩ .

أما السنة : ففيها ثلاث مراتب :

اثنتان متفق عليهما بين الجمهور والأحناف ، والثالثة تفرد بها الأحناف .

أما المرتبة الأولى فهى « المتواتر » — وهو قطعى الثبوت .

وهى التى رواتها جماعة يؤمن تواطؤهـــا على الكذب ، عن جماعة أخرى ، حتى تتصل الحلقات برسول الله ﷺ وهى قليلة فى الحديث ، وفى الفعل ، وفى الاقرار .

أما المرتبة الثانية : فهى « الآحاد » — وهى ظنية الثبوت .

وهو ما ليس بمتواتر سواء رواه واحد أو اكثر ما دام لم يصل الرواة الى حد الجماعة .

واختلف حول الجماعة ، وقيل : أقلها ثلاثة وهو الراجح .

وقال البعض — وهو مرجوح — الاثنان لامكان التعبير عنهما بصفة الجماعة .

أما المرتبة الثالثة : فهى « المشهور » وهى تقع بين الأولى والثانية ، ومن ثم فهى فوق الظنية ودون القطعية .

وقد قال بها الأحناف ، ويقصدون الحـــديث المتواتر حتى الحلقة الأولى فيكون آحادا .

ورغم اختلاف درجة الثبوت ، فالعمل بالجميع متفق عليه — كما المحنا — من قبل .

وانما تفيد درجة الثبوت عند التعارض أو الترجيح .

٢ ــ حول الدلالة :

كلا القرآن والسنة يرد عليهما الدلالتان : الدلالة القطعية ، والدلالة الظنية .

وذلك تبعا لصياغة النص القرآنى أو النبوى .

فقول الله « **واقيموا الصلاة** » (٦٢) وقوله : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** » (٦٣) وقوله : « **للذكر مثل حظ الانثيين** » (٦٤) .. كلها قطعية الدلالة .

وقول الرسول ﷺ : «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها» كذلك ..

وقول الله : « **والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء**»(٦٥) ، وقوله « **او يعفوا الذى بيده عقدة النكاح** » (٦٦)

وقول الرسول ﷺ « فى المال حق سوى الزكاة » .. هذه نصوص ظنية ..

٣ ــ مصادر او ادلة تابعة او ملحقة :

الوحى ــ قرآنا وسنة ــ هو المصدر ، والعقل تبع .

لكن الله سبحانه ــ فى وحيه ــ اذن لنا فى مصادر أو أدلة أخرى اما تابعة للوحى او ملحقة به:فالاجماع...والقياس .. والمصلحة..

---

(٦٢) البقرة : ٤٣ .
(٦٣) النور : ٢ .
(٦٤) النساء : ١١ .
(٦٥) البقرة : ٢٢٨ .
(٦٦) البقرة : ٢٣٧ .

والاستحسان : مصـــادر تابعة للوحى ، اذ تستند الى نص فيـــه أو معنى ، ويتم البناء على ذلك النص أو المعنى (٦٧) .

ورأى الصحابى .. و شرع من قبلنا .. والعرف : مصادر ملحقة .. لأنها فى الواقع تلتحق بالوحى بطريق من الطرق التى بيناها فى غير هذا المكان (٦٨) .

من هذا الذى قدمنا ، نجد أن الوحى مصدر المعرفة الأول ، وهو المصدر الصحيح ، وهو المصدر الوحيد فيما يتعلق بمعرفة الله ، ومعرفة اليوم الآخر ، ومعرفة الملائكة ، وسائر عالم الغيب .

وأما بخصوص أمور الدنيا فيبقى للوحى الوصفان الأولان : انه المصدر الأول ، وانه المصدر الصحيح .

وبعد الحديث عن العقل لنا — بمشيئة الله — تعقيب آخر .. والله المستعان .

* * *

---

(٦٧) مصادر المشروعية الاسلامية للمؤلف .
(٦٨) المرجع السابق .

العقل .. مصدر المعرفة الثانى ، وبحدود

● **تقـــدمة :**

قدمنا كيف كرم الاسلام الانسان ، وكيف كرمه بعقله ولعقله .

وأيا كان موضـــوع العقل — فليس هو اكبر همنا ولا مبلغ علمنا — فان الاسلام جعله مناط التكليف ، فالذى يفتقـــده ليس بمكلف ، ثم هو أداة الاجتهاد وصولا الى حكم الله سبحانه مع سائر الضوابط التى وضعها الشرع الحكيم .

والعقل — من وراء ذلك — مصدر للمعرفة .

لكن لمعرفته حدودا .

ذلك ما نبينه والله المستعان .

● **مصادر المعرفة المختلفة :**

لا نتصور معرفة — فى هذه الحياة — الا باحدى طرق ثلاث :

١ — معرفة حسية :

ونقصد بها المعـــرفة عن طريق الحواس .. وأولها السمع والبصر .

لكن الحواس وحدها لا تتم بها المعرفة ، الا أن تنتقل الصورة الى العقل فيترجمها الترجمة الصحيحة،ومن ثم فان الطفل غير المميز له سمع وبصر .

والحيوان كذلك له سمع وبصر .

لكن معرفتهما عن طريق حواسهما — بغير عقل — قد لا تكون صحيحة ، وقد تختلط .

فالطفل غير المميز قد يخلط بين الثمرة والجمرة فيقبل على الأخيرة دون الأولى ، وقد حدث مع موسى عليه السلام .

والحيوان قد يسمع الأصوات وتختلط عليه ، وقد يرى الشباك ولا يميزها من الأرض التى يسير عليها ... وهكذا ..

ولذا وصف رب العالمين الكفار بهذا الوصف :

« ومنهم من يستمعون اليك ، افأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » (٦٩) .

« ومنهم من ينظر اليك ، افأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » (٧٠) .

وفى مكان آخر وصفهم بأن : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل »** (٧١) .

ذلك أن تلك الوسائل التى أعطاهم الله اياها قد افتقدت الاتصال السليم فتعطلت وظيفتها .

فهم يسمعون ولا يعقلون ..

وهم ينظرون ولا يبصرون !

ولهم قلوب ولكنهم بها لا يفقهون !

٢ ــ معرفة عقلية أو قل بدهية :

كالمعرفة بأن النصف لا يزيد على الكل .

---

(٦٩) يونس : ٤٢ .

(٧٠) يونس : ٤٣ .

(٧١) الاعراف : ١٧٩ .

وأن الثلاثة تزيد عن الاثنين .

وأن الشخص لا يوجد فى مكانين فى وقت واحد .

وهكذا ... وهذه لا تحتاج الى حـــواس ، ولكنها تحتاج الى عقل .

٣ ــ معرفة خبرية :

وهى لا تتأتى من العقل ولا من الحس .

ولكنها تتأتى من الاخبار .

ذلك أن هناك جانبا قد لا تدركه الحواس ، ولا يدركه العقل .

كوقوع حادث فى بلد بعيد ، يرويه صديق أو قريب .

وكوقوع حادث فى الماضى الذى لم يعشه الانسان ، فانه يحتاج كذلك الى من يرويه .

وصدق هذه المعرفة متوقف على صدق الراوى .

وفى هذا المجال استطاع المسلمون ــ وحدهم ــ أن يضعوا قواعد علم جليل هو علم الجرح والتعديل !

بيد أن جانبا من هذا الاخبار لا سبيل له الا الوحى : كالمعرفة بالله ، وباليوم الآخر ، وبعالم الغيب .. فكله قد يدرك العقل طرفا منه لكن الادراك العام والصحيح لا يكون الا بالوحى ــ والله أعلم .

* * *

● **نتائج المعرفة العقلية :**

تصل المعرفة بأنواعها الى أحد نتائج ثلاث :

١ ــ اكتشاف سنة كونية كقانون الجاذبية،او كدوران الأرض

حول نفسها وحول الشمس — أو غير ذلك من السنن التى بثها الله فى كونه ، وهذه تدخل فى مرتبة الحقائق العلمية .

٢ — بلوغ حقيقة علمية : بالحس أو بالاستنتاج ، ككون الأرض كروية ، وكون القمر لا يصلح للحياة ، وكون الشمس غاز ملتهب ، وكون الاسماك تتنفس داخل الماء .

فهذه أيضا بلغت — بالمنهج التجريبى — مستوى الحقائق العلمية .

٣ — بلوغ نظرية أو فرض : قد يقف الأمر عند حد النظرية أو الفرض ، اذا لم يصل العالم برأيه الى مستوى الحقيقة العلمية .

والنظرية والفرض قابلان للتغيير والتصحيح (٧٢) .

* * *

---

(٧٢) والاسلام يندب المسلمين الى اعمال عقولهم ، والى البحث والتنقيب ، والى النظر فى ملكوت السموات والأرض والآيات كثيرة فى هذا المجال ، وهى تستحث المسلمين لغزو هذه الميادين جميعا .. وفقهاء المسلمين على أن كل فرع من العلوم ينبغى أن ينفر له فريق من المسلمين والا اثموا جميعا ، وهو ما يسمى فى الفقه « بفروض الكفاية » وفروض الكفاية كما يرى عالم بحق — فروض جماعية ، وهى لا تقل عن الفروض العينية . . وهو نوع من توزيع المسئولية بين جماعة المسلمين « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ومن هنا وجب على المسلمين أن يغزوا الفضاء ، وأن يغزوا ميادين التكنولوجيا التى سبقنا اليها اليوم الشرق والغرب مع أننا أساتذتهم فى هذا المجال ، والا فاسألوا جامعات قرطبة وغرناطة ومالطة وغيرها من جامعات الاسلام التى تلقى منها الغرب خيوط العلم الأولى فسار بها ووقفنا نحن أو رجعنا القهقرى — وانا لله وانا اليه راجعون .

درء تعارض الوحى والعقل

● حقائق الوحى لاتتعارض مع حقائق العقل:ونقصد بحقائق الوحى ما كان منه قطعيا ، فالقطعى من الوحى لايتعارض مع ماوصل اليه العقل من حقائق . ذلك أصل .. فان حدث :

● فان قطعى الوحى يتقدم قطعى العقل : وذلك لما تقدم : « **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** » (٧٣) .

وبالفحص والتمحيص سوف يظهر أن حقائق العقل ليست قطعية . فتحـــريم الخـــنزير قطعى ، وما كان يظنه البعض من « حقائق » حول الخنزير تبدلت وتبدت الآن وهكذا .

● وقطعى الوحى يتقدم ظنى العقل : وذلك من باب أولى ، فلا يمكن لنظرية أو فرض لا يزالان فى مرتبة الظن أن تتقدما الوحى ما دام قطعيا .

● وظنى الوحى يتقدم ظنى العقل : لأنه ان تساووا فى الظن ، فالوحى أولى بالتقدم .

---

(٧٣) الحجرات : ١ .

● وقطعى العقـل يفسر على أســاسه ظنى الوحى (٧٤) : باعتبار أن ظنى الوحى يحتمل اكثر من تفسير ، فيرجح التفسير الذى فى جانب الحقائق العلمية ، وبذلك ندر أن يتعارض الوحى والعقل ، أو ما ظنه البعض كذلك ــ والله أعلم .

* * *

---

(٧٤) وفى هذا المعنى يقول الامام ابن تيمية : اذا قيل تعارض دليلان سواء أكانا سمعيين أو عقليين ، أو أحدهما سمعيا والآخر قطعيا ، فالواجب أن يقال : لا يخلو اما أن يكونا قطعيين أو يكونا ظنيين ، واما أن يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنيا ، فأما القطعيان فلا يجوز تعارضهما سواء أكانا عقليين أو سمعيين ، أو أحدهما عقليا والآخر سمعيا وهذا متفق عليه بين العقلاء ..

وان كان أحد الدليلين المتعارضين قطعيا دون الآخر ، فانه يجب تقديمه باتفاق العقلاء سواء أكان هو السمعى أو العقلى ، فان الظن لا يرفع اليقين .

وأما ان كانا جميعا ظنيين فانه يصار الى ترجيح أحدهما،فأيهما ترجح كان هو المقدم سواء أكان سمعيا أو عقليا .

(درء تعارض العقل والنقل ــ تحقيق د. محمد رشاد سالم طبعة أولى ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) صفحة ٧٦) .

اتصال العقل بالوحى

● **تقـــدمة :**

هنا يتم التلقى ، أو هنا تتلقى الأرض الغيث ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

ويقع هنا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ « ان مثل ما بعثنى الله من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة قبلت المـــاء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا (٧٥) ، وأصاب منها طائفة قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما أرسلت به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (٧٦) .

وعن على رضى الله عنه « القلوب أوعية فخيرها أوعاها »(٧٧).

وعن بعض السلف « القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها الى الله تعالى أرقها وأصفاها » (٧٨) .

ولقد كان عن اتصال العقل بالوحى خير كثير :

---

(٧٥) وتتمثل فى هذه الطائفة قول الرسول ﷺ « رب حامل فقه الى من هو أفقه منه » .

(٧٦) ابن تيمية ـ الفتاوى ـ جـ ٦ ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٧٧) المرجع السابق . (٧٨) نفس المرجع .

كان علم الفقه ، وكان علم أصول الفقه ، وكان علم مصطلح الحديث .

أما المنطق .. فقد نشأ خارج الوحى ، نقلا عن اليونان ، ابان ترجمة الفلسفة اليونانية فى العهد العباسى ، وكان له قادحون ومادحون ، ونحن لذلك ذاكرون بمشيئة الله .

فهذه أربعة أمور نتناولها على التوالى بشىء من الاجمال .

١ — علم الفقه :

على عهد رسول الله ﷺ تلقى المسلمون أحكام دينهم من رسول الله ﷺ : قرآنا يتلى ، فيفهمونه ، ويعملون به .

وسنة يتدمها رسول الله ﷺ وحيا عن رب العالمين .. فى قوله ، وفعله ، واقراره .

واجتهادا — عاما — من رسول الله ﷺ ، فيقره الوحى أو يصححه .

وجاء عهد الصحابة .. فطبقوا الوحى — قرآنا وسنة — فى أكثر حياتهم .

وجدت لهم قضايا ، فاجتهدوا فيها .. بما علموا من كتاب وسنة ، وبما تربى فى نفوسهم من ملكة الاجتهاد لقربهم من الوحى ، وعلمهم بأسباب التنزيل ، وتعلمهم فى مدرسة النبوة الكريمة .

وكان بدء « الفقه » دون تسمية ودون تدوين .

وجاء عهد التابعين ، وتابعى التابعين .. فكثر الاجتهاد مع كثرة القضايا ! وتبعهم الأئمة المجتهدون ، وشهد القرن الثانى

والثالث بدء تدوين السنة ، وبدء تدوين الفقه وكان أول ما دون موطأ الامام مالك ، بناء على طلب الخليفة المنصور ، وكان كتاب حديث وفقه ، ثم دون الامام أبو يوسف صاحب أبى حنيفة عدة كتب ، ودون الامام محمد بن الحسن كتب ظاهر الرواية الستة — جمعها الحاكم الشهير فى الكافى وشرحه السرخسى فى المبسوط ، وأملى الامام الشافعى كتابه الأم — وهو عماد المذهب الشافعى .

وتتابع التدوين ، والاجتهاد ، والكتابة .

وكان علم الفقه على هذا النحو لقاح الفكر بالوحى ، أو بعبارة أخرى استنارة العقل بنور الوحى ، فكان من أخصب العلوم الاسلامية ، التى تقدمت على ما قدمته أوروبا بعد ذلك فى أوج تقدمها الفكرى من شروح قانونية أو نظريات فقهية !

٢ — علم أصول الفقه :

لئن بدأ « الفقه » عملا مع عهد الصحابة فى القرن الأول الهجرى،فان علم أصول الفقه لم يبدأ الا فى القرن الثانى الهجرى — عملا — كذلك ، مع اتساع اجتهادات الفقهاء ، فقد كانوا خلال اجتهاداتهم يستدلون ، ويضعون الضوابط التى مثلت بعد ذلك قواعد الأصول .

وكان أول من جمع المتفرقات فى سفر على حدة الامام أبو يوسف صاحب أبى حنيفة — كما ذكر ابن النديم — ولكن لم يصل الينا ما كتبه ، وكان أول من دون مجموعة مستقلة مرتبة مؤيد بالأدلة هو الامام محمد بن ادريس الشافعى — رحمه الله — فى « الرسالة » ، ولذا اشتهر الشافعى أنه واضع علم الأصول .

وظهرت فى الكتابة فى الأصول بعد ذلك عدة طرق .

طريقة علماء الكلام الذين حققوا قواعد هذا العلم تحقيقا منطقيا نظريا (٧٩) .

أما طريقة علماء الحنفية فقد بنوا الأصول على الفروع أى استنتجوا أصولهم من حلول أئمتهم (٨٠) .

وقد جمع آخرون بين الطريقتين ، ومنها كتاب بديع النظام الذى جمع بين البزدوى والأحكام للبغدادى (مظفر الدين) المتوفى عام ٦٩٤ هـ ، وكتاب التوضيح لصدر الشريعة ، والتحرير للكمال ابن الهمام ، وجمع الجوامع لابن السبكى .

وعلم أصـــول الفقه من أجـــل العلوم التى تضبط الأحكام الفقهية ، وتساعد المجتهد على الوصول الى صحيح الحكم الشرعى فيما يعرض له من قضاء أو فتيا أو بحث علمى .

ولا يكاد يوجد مثيل لهذا العلم فى الغرب الا بضع نظريات وضعوها لتفسير وجود القانون وحاجة الناس اليه وحياته وموته ، وهى دون ضوابط علم الأصول بكثير .

---

(٧٩) أكثر الأصوليين من الشافعية والمالكية على هذه الطريقة، ومن أشهر الكتب المستصفى للغزالى (٥٠٥ هـ) ، الاحكام للآمدى (٦٣١ هـ) المنهاج للبيضاوى (٦٨٥ هـ) وشرحه للاسنوى .

(٨٠) منها أصول الدبوسى (٤٣٠هـ) ، البزدوى (٤٣٠هـ) ، النسفى (٧٩٠ هـ) وأحسن شروحه مشكاة الانوار .

وفى الدراســـات الحقوقية فى بلاد الاسلام يلجـــأون الى علم أصـــول الفقـــه لحسن تفسير النصوص القانونية ووضع الضوابط لها ، مما يشعر بالحاجة الى هذا العلم الجليل حتى فى ميدان القانون الوضعى .

والعلم بهذه المثابة ثمرة استنارة العقـــل بالوحى كما كان الفقه كذلك !

٣ ــ علم مصطلح الحديث :

حفظ الله لهذه الأمة كتابها ، وحفظ لها كذلك سنة رسولها، باعتبارهما شطرا الوحى ، ويتحقق أمر الله القدرى « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » (٨١) وباعتبار ما فى هذا النص من أمر شرعى كذلك ليس بطريق العبارة ولكن بطريق الاشارة .

أما حفظ الكتاب فقد تواتر فى الصدور ، وفى السطور .

وأما حفظ السنة أو الحديث (٨٢) فقد كان بما قيض الله له من صحابة رسول الله ﷺ ــ وكلهم عدول ــ يحفظون عنه القول ، والفعل ، والاقرار ، والصفة ..اكثرهم يحفظه فى الصدور (٨٢) ،

---

(٨١) الحجر : ٩ .

(٨٢) السنة والحديث وان اختلفا فى المعنى اللغوى لكل : فالسنة هى الطريقة ، والحديث هو الجديد ، لكنهما بمعنى واحد اصطلاحا .

(٨٣) فى هذا المعنى الشيخ الجليل محمد نجيب المطيعى رحمه الله ، وقد كان أحد علماء السنة الأفذاذ رحمه الله ،وفيما سمعت منه أنه كان يحفظ ثمانية آلاف حديث باسنادها فضلا عن فهمه لمعانيها والتزامه بأحكامها وقد توفى رحمـــه الله عام ١٤٠٦ هـ . عوضنا الله فيه خيرا .

وبعضهم يحفظه فى السطور،تحرجا منهم أن يختلط القرآن بالحديث.

حتى كان عمر بن عبد العزيز الذى أسماه الشافعى بخامس الخلفاء الراشدين ، فأمر بتدوين السنة ، ثم تلا ذلك أول تدوين لها من امام أهل السنة الامام مالك رضى الله عنه (٨٤) وتلا ذلك تدوين الامام البخارى بشروطه ، والامام مسلم بشروطه ، وتلا هذين بقية أصحاب الكتب الستة محاولين البحث عن الصحيح ، ومنقين سنة رسول الله ﷺ من كل وضع أو تحريف .

وهكذا عرف علم مصطلح الحديث ، وما تفرع عنه من علم الرجال ، أو علم الجرح والتعديل ، وفى العلمين بلغ علماء المسلمين شأوا لم يبلغه أحد قبلهم ولا بعدهم .. بل ان هذا العلم الجليل يبقى بغير نظير أو مقابل له فى علوم الغرب على تقدم الكثير منها ، وفيها يظهر الجهد البشرى ، مسددا بنور الوحى ، محوطا بعناية الرحمن « **ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** » (٨٥) ..

٤ ــ علم المنطق :

المنطق عرف قبل الميلاد عند اليونان ، وأستاذه أرسطو ، وهو قواعد « عقلية » تفيد فى مجال المناظرة أو الجدال . بيد أن ظروف نقله الى العربية ابان العهد العباسى ، أساءت اليه كثيرا.

وقد اقترن فى الأذهان « بالسفسطة » ، و « الجدل البيزنطى » فكانت الاساءة أكثر .

---

(٨٤) المرجع السابق ــ صفحات ٧ ، ٤ ، ١٩ .

(٨٥) النور : ٤٠ .

ومن علماء المسلمين من دافع عنه (٨٦) .
ومنهم من هاجمه هجوما شديدا (٨٧) .

---

(٨٦) من هؤلاء الامام أبو حامد الغزالى الذى قال «انى ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة ، وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم فى أصل العلم أو يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلعه على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ... » (المنقذ من الضلال) ثم يقول فى مقدمة المستصفى « ان من شروط العالم المجتهد أن يحيط بعلم النظر ، ويحسن ايراد البرهان واجراء القياس » ، ويقول فى كتاب مقاصد الفلاسفة « أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب ، والخطأ فيها نادر،وانمايخالفون أهل الحق فيها بالاصطلاحات والايرادات دون المعانى والمقاصد » — وراجع كذلك الاستاذ العقاد — التفكير فريضة اسلامية ص ٢٨ — ٤٥ .

(٨٧) من هؤلاء الامام ابن تيمية ، وان عده الاستاذ العقاد ممن يسلمون بالمنطق ، لكن مراجعة ما كتبه الامام ابن تيمية رحمه الله (فى جزء كامل) تعطى عكس ما قاله العقاد ، فضلا عن تصريحه الصريح بذلك،ونكتفى هنا بقوله « غلط شرعا وعقلا من قال انه فرض كفاية .. هذا العلم بعضه حق وبعضه باطل ، الحق الذى فيه لا يحتاج اليه ، اكثر الحق الذى فيه تستقل بمعرفته الفطر » (ص ٢٧٠ — ج ٩ مجموعة الفتاوى) وقد تضمن فى هذا الجزء الذى تربو صفحاته على الثلاثمائة الحديث حول : ما تقولون فى المنطق ؟ وهل من قال انه فرض كفاية مصيب أم مخطىء ؟ ، (نقض المنطق) مختصر نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان،فصل فى ضبط كليات المنطق والخلل فيه ثم انتهى الى النتيجة التى أشرنا اليها .

ومنهم من وقف منـــه موقفا وسطا فأقر صحيحه ، وانكر فاسده (٨٨) .

ونحن نرى فى هذا المجال — وهو ليس بكاف لدراسته دراسة مستفيضة — أن عيب المنطق ليس فى انه وافد علينا ، فكم من علوم وفدت الينا ! فضلا عن أنه ان كان فيه جانب من الحكمة ، فالحكمة ضالة المؤمن انى وجدها فهو احق الناس بها .

ولكن عيبه هو فى عدم الحاجة اليه .

فالصحيح فيه بدهيات لا يلزم لها علم ولا قواعد .

وغير الصحيح فيه لا ينبغى أن نضيع وقتنا فيه !

وفى محاولة لنا للاستغناء عن المنطق ، حاولنا وضع قواعد مستمدة من القرآن ، واخرى مستمدة من اصول الفقه للاستفادة منهما فى مادة الحوار والمناظرة بحثا عن الحـــق وبلوغا اليه ان شـاء الله (٨٩) .

* * *

---

(٨٨) فضيلة الشيخ محمود فايد دروسه فى المنطق فى القسم الثانوى بالأزهر ، ومن أشار اليهم .

(٨٩) راجـــع ما كتبنا فى مادة أدب الحوار والمناظرة — دراسات عليا — قسم الاستشراق (تحت الطبع بمشيئة الله) .